التحدّيات المسكونيّة في الشرق الأوسط
ودور الحركات الشبابيّة في إعادة إطلاق الحركة المسكونيّة

الأب كابي ألفرد هاشم[1]

الواقع المسكونيّ الراهن في الشرق الأوسط

كانت وحدة الكنيسة ولا تزال العلامة الأهمّ في حياة الكنيسة الأنطاكيّة بكلّ تفرّعاتها، وفي تعاطي كنائس الشرق الأوسط بعضها مع بعض[2]. فالحالة الأنطاكيّة منذ نشأة هذه الكنيسة، اتّسمت بالتعدّديّة والتنوّع والانفتاح على الحضارات والثقافات المحيطة ضمن الوحدة في العقيدة والأمور الأساسيّة. ولطالما عانت الكنائس في هذه المنطقة من العالم من الانقسام المنظور الحاصل بين الجماعات المسيحيّة المختلفة الذي يشوّه حقيقة الكنيسة ويصيب بالعطب شهادتها ورسالتها في محيطها. ولكن المسعى الوحدويّ لم يغب يومًا عن بال هذه الكنائس، لأنّ الوجود المسيحيّ الذي كثُر الكلام عنه في الآونة الأخيرة مرتبطٌ أوّلاً بالشهادة للإنجيل التي ترتبط بدورها بتفاعل الكنائس وأبنائها مع قرائن الواقع، ومع الأديان وأبنائها المقيمين على رقعة الأرض عينها، الذين يتشارك المسيحيّون وإيّاهم في التاريخ والتحدّيات والمصير[3].

---

[1] أستاذ في جامعة الروح القدس-الكسليك، وعضو في اللجنة الأسقفيّة للعلاقات المسكونيّة في مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان، ومدير سابق لقسم الإيمان والوحدة في مجلس كنائس الشرق الأوسط. أصدر سنة ٢٠٠٨ كتابًا بالعربيّة يحمل عنوان : "تاريخ الحركة المسكونيّة ومجلس الكنائس العالميّ"، ونشر العديد من المقالات اللاهوتيّة والمسكونيّة بالعربيّة والفرنسيّة وشارك في الكثير من المؤتمرات في لبنان والعالم.

[2] قبل وفود الإرساليّات اللاتينيّة والإنجيليّة، كانت الكنيسة الأنطاكيّة متفرّعة إلى خمسة فروعٍ أساسيّة : السريانيّ، الملكيّ البيزنطيّ، الماروني، الأرمنيّ والكلدانيّ. ونضيف على هذه اللائحة لنستكمل لوحة الحضور المسيحيّ في الشرق، الكنيسة القبطيّة، والكنيسة الأشوريّة، والكنيسة اللاتينيّة، والكنائس البروتستنتيّة والإنجيليّة المتعدّدة.

[3] هذا التفاعل أصبح أمرًا ملزمًا لا سيّما بعد ظهور الإسلام وانتشاره وتحوّله إلى "أكثريّة" عدديّة، وبعد تأثيره على مواقع السلطة في الشرق إذ أصبح دين الدولة الرسميّ في كثير من البلدان. وهنا لا بدّ من لفت الانتباه إلى أن التعاطي مع الديانة اليهوديّة وأبنائها، والذي كان قائمًا منذ القرن الأوّل، قد أصابه الجمود وغاب حتّى عن الخطابات والأذهان، بسبب المأساة الفلسطينيّة والصراع العربيّ-الإسرائيليّ وما يفرزه من العنف بأشكاله العديدة. ومن الجليّ، في المقابل، أنّ الحوار مع الديانة الإسلاميّة وأبنائها احتلّ الحيّز الأوّل من اهتمام المسيحيّين العرب ولا سيّما بعد واقعة الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ وما خلّفته في النفوس والعقول حول ما دُعي بصراع الحضارات والديانات... فيبقى أنّ هذا التفاعل لم يأتِ دومًا بالنتائج المرجوّة، ولم يؤدِّ دومًا إلى خبراتٍ ناجحة، إذ خبرنا، على مدى قرونٍ، خيبات أمل وعرفنا عهودًا من العنف المتبادل وسوء الفهم والعداء.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

ومنذ نشأة الحركة المسكونيّة (١٩١٠)، هبّت في الشرق أيضًا الرياح المؤاتية لتكثيف الجهود الوحدويّة حتّى آن الأوان واجتمعت بعض الكنائس في هيئةٍ مسكونيّة واحدة هي مجلس كنائس الشرق الأوسط الذي اكتمل بناؤه بانضواء عائلة الكنائس الكاثوليكيّة إليه سنة ١٩٩٠[٤]. وقد لعب هذا المجلس حتّى مطلع القرن الحادي والعشرين دورًا بارزًا في تعزيز الحركة المسكونيّة على الصعد كافةً، وبين أبناء الكنائس فكان المنتدى الذي تتلاقى فيه الكنائس لتتعارف فيما بينها، ومحلّ التنشئة المشتركة، والتفكّر والتحاور، وتبادل الآراء وتدارس المشكلات وابتداع الحلول. وقد كان للشبيبة حصّةً كبيرة في برامج المجلس وأنشطته لأنّه من جهةٍ، لم يتناسَ أنّ الحركات الشبابيّة هي التي أسهمت في قيام الحركة المسكونيّة منذ مئة عام، ومن جهةٍ أخرى، عرف ما للشباب من حضورٍ ودورٍ في نشر بشارة الإنجيل، وتغيير الواقع الكنسيّ والمجتمعيّ، وتحقيق الوحدة المسيحيّة. إنّهم أمل المستقبل! لقد كان المجلس طوال قرونٍ "الجسم المسكونيّ " الذي يلائم حاجة كنائسنا، والجامع لها، والحافز الذي لا يني يذكّرها بوجوب استمرار السعي الحثيث إلى استعادة الشركة التّامة بينها، وإعادة الوحدة إلى الكنيسة الأنطاكيّة الأم. لكنّ المجلس يعاني منذ بضعة سنوات من أزمةٍ حادّة متعدّدة الأوجه كما حاول البعض التعبير عنها. فبالإضافة إلى الأزمة الماليّة يتبيّن يومًا بعد يوم، أنّ التزام الكنائس الأعضاء بهذه الهيئة المسكونيّة والإيمان بفرادتها قد ضعُف مع تراكم السنين. وقد أدّى هذا الأمر إلى أزمةٍ إداريّة وتساؤلٍ خطير حول هويّة هذا المجلس ومدى الحاجة إليه حتّى انتهى الأمر ببعضهم إلى التقليل من منفعة المجلس والإدّعاء بأنّ الكنائس، بعدما التزمت العمل المسكونيّ، قادرةٌ على تطويره من دون أيّة هيئةٍ مشتركة تستترف الطاقات البشريّة والماديّة بلا جدوى. ولكنّ في ذلك برأيي بعض المبالغة لأنّ أيّ من هذه الكنائس غير قادرٍ على عيش الروح المجمعيّة وجهٍ شامل مع الكنائس والجماعات المسيحيّة الأخرى، ولا على ابتداع المبادرات المسكونيّة التي تناسب كلّ مكوّنات النسيج الكنسيّ كما فعل مجلس كنائس الشرق الأوسط. ويتناسى هؤلاء برمشة عين الجهود الحثيثة التي بذلها بسخاءٍ فريد، طيلة قرونٍ، العديد من روّاد الحركة المسكونيّة حتّى حقّقوا ما يتمنّاه الربّ لكنائسنا : أن تسير معًا في مجلس واحد، نحو الشهادة المشتركة وملء الوحدة والشراكة الكنسيّة.

[٤] يضمّ المجلس كلّ كنائس المنطقة باستثناء الكنيسة الأشوريّة، في صيغةٍ تجمع العائلات الكنسيّة الأربع : الشرقيّة الأرثوذكسيّة، والبيزنطيّة الأرثوذكسيّة، والإنجيليّة، والكاثوليكيّة. وهو في صيغته هذه يُشكّل فرادةً قلّ مثيلها في العالم لأن الكنيسة الكاثوليكيّة ليست عضوًا في مجلس الكنائس العالميّ ولا في مجالس الكنائس الإقليميّة أو الوطنيّة.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لا بدّ من الاعتراف بأنّ المجلس هو أداة ووسيلة في خدمة الكنائس عندما تسعى إلى الوحدة، وهو ليس مستقلاً عنها ولا منفصلاً. وخدمته المسكونيّة تقوم بالدرجة الأولى على تعزيز المسكونيّة لا على إعفاء الكنائس الأعضاء من مسؤوليّتها ومهمّتها. لذلك ينبغي علينا، في هذا المجال، أن نقرّ بما حقّقته بعض الهيئات القائمة على الأرض والفاعلة من مثل مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، ومجلس رؤساء الكنائس الشرقيّة الأرثوذكسيّة، ورابطة الكنائس الإنجيليّة في الشرق الأوسط، وغيرها من الحركات الشبابيّة ذات البعد المسكونيّ أو التجمعّات التي تنشد إعادة إحياء الحضور المسيحيّ ودوره في المنطقة، كالاتّحاد العالميّ المسيحيّ للطلبة، وحركة الشبيبة الأرثوذكسيّة، وتجمّع مار أغناطيوس الأنطاكيّ، ورابطة معاهد وكلّيات اللاهوت في الشرق الأوسط... ولكنّ أيًّا من هذه الهيئات أو الحركات لا يقدر أن يحلّ محلّ مجلس كنائس الشرق الأوسط أو أن يلعب دوره الشامل في لمّ شمل مسيحيّي المنطقة وكنائسهم في جسمٍ مسكونيٍّ واحد.

لا ريب في أنّ الحركة المسكونيّة عندنا تمرّ بأوقاتٍ حرجة وأنّ الشكل الحاليّ لمجلس كنائس الشرق الأوسط لم يعد مناسبًا ولا فاعلاً بمقدار ما تقتضيه تحدّيات الحضور المسيحيّ في أيّامنا سواء على مستوى التنسيق الدائم بين الكنائس لتعزيز الشراكة وتقوية الشهادة، أم على صعيد التفاعل مع أبناء الديانات الأخرى ودفع الحوار بينها نحو المزيد من التقدّم، ولا على صعيد الإسهام في رقي الإنسان وتحقيق السلام العادل من خلال دورٍ قادرٍ للكنائس والجماعات المسيحيّة في الشرق. ولا بدّ من الثناء على رؤساء الكنائس والعاملين على إعادة بناء هذا المجلس بصيغةٍ جديدة وحلّةٍ ملائمة ليعود إلى لعب دوره بشكلٍ صحيح كما يريده الربّ. ولكنّ مهمّتهم تزداد صعوبةً يومًا بعد يوم والسبل إلى تحقيق هدفهم النبيل تعتريها الصعوبات والعقبات.

تطلّعات وآمال

إنّ جلّ ما يتمنّاه جميعنا ومن يُعنى بالشأن المسكونيّ والحضور المسيحيّ في هذا الشرق يكمن في حقائق بات الكثيرون يردّدونها وأعبّر عنها بالكلمات التالية، الوعي والحسّ الكنسيّ، والتجذّر والعيش المشترك، والدور الصحيح الملائم.

لقد بتنا في أمسّ الحاجة إلى نهضةٍ كنسيّة مشرقيّة تعيد الاعتبار إلى الكنائس والجماعات بصفتها الروحيّة والسامية أوّلاً. فلا التغنّي بأمجاد الماضي ولا الاستسلام لأحلام المستقبل تفيان بعد اليوم بالغرض

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

المطلوب لتحقيق أهداف الحضور المسيحيّ وفاعليّة الكنائس وشهادتها. والرهان على قدرتنا في التجدّد الحقيقيّ بات أمرًا جوهريًّا لأنّ تحدّيات الواقع الراهن تستلزم الخروج من الهويّات الطائفيّة الضيّقة إلى رحاب الحوار والتعايش الواسعة. والمسألة لم تعُد كامنة في قدرة الكنائس على اجتذاب من ليس مسيحيًّا إلى الدين المسيحيّ، بل على عيش مستلزمات الإنجيل والتقيّد بوصيّة المحبّة في معيّة الآخر المختلف ولا سيّما في أجواء العنف السائدة على المنطقة منذ عقود. إنّ القدرة على المحبّة والحوار هما الوجه الجديد للشهادة قبل التفاعل المجتمعيّ والدور السياسيّ وإلى ما هنالك من الأمور الخطيرة التي تصيبنا في صميم وجودنا. فإن لم نخرج من عقد الأقليّات، وليس أقلّها الخوف من المصير والرغبة الشديدة في التعبير عن الوجود، والسهر الشغوف على الامتيازات والحقوق الخاصّة، لقبول الواقع الأقلّيّ، لن نكون "شاهدين" جاهزين للاستشهاد، ولن نقتنع في أعماق كياننا بأنّنا من هذه الأرض ولها، وأنّ كلّ تغرّبٍ وهجرةٍ تكون قاتلةً لخصوصيّة مسيحيّتنا وتمايزها عن مسيحيّة الغرب. أجل نحن أقلّيّاتٌ عددًا وعدّةً ولكنّ دورنا، وإن تأثر بهذا الأمر تأثّرًا بالغًا، يبقى على ما هو عليه في جوهره، أي أن نقول المسيح ونحياه وننقله بالمَثَل. وهذا هو الحسّ الكنسيّ المتجلّي في البساطة والتواضع والروح المشتركة والسعي الروحيّ. الوعي الكنسيّ الأهمّ يتناول خصوصًا التفرّد ليقصيه، ويتبنّى المجمعيّة أي الوجود الإيجابيّ والمتفاعل مع الآخر ضمن العيش الواحد، والمصير الواحد. فلا يُعقل بعد اليوم أن تتحرّك أيّة كنيسةٍ في أمرٍ خطير منفردةً لأنّ المجمعيّة باتت مرتبطة بالكيان وليس فقط بالشكل، سواء على الصعيد المسكونيّ أم الدينيّ والمجتمعيّ. لقد آن للمسيحيّين المشرقيّين أن يعوا أن جلّ ما يطلبه الآخر منهم، قبل السياسة والإصلاح المجتمعيّ، هو بلا ريب الغنى الروحيّ الآتي من الإنجيل والتقليد والمتجسّد في القرائن، والمحبّة والتجذّر وتبنّي حالة الإنسان في هذه الأوطان الجريحة. فهل يقدر السينودس من أجل الشرق الأوسط على إثارة هذا الوعي بزخمٍ جديد يقوى على خلق صدمةٍ إيجابيّة ضمن الكنائس وبينها، وتكون من أولى نتائجها وأعظمها إعادة المسيرة المسكونيّة إلى انتظامها ومجلس الكنائس إلى رسالته؟ وحده هذا الحسّ الكنسيّ يعيد الشباب إلى الكنائس ويجعلهم فخورين بها إن عرف الرؤساء والمسؤولون أن يولوا هذا الحسّ الصدارة في اهتماماتهم. الشباب يحتاج إلى الاستقرار الداخليّ المرتبط بالهويّة والدور ليتجذّروا وذلك قبل فرص العمل وحلول السلام العادل الذي صار أقرب إلى الوهم والسراب. الرهان في المواجهة لا في الضمانات، وفي التحدّي لا في الامتيازات، وفي الدعوة المسيحيّة لا في الدور إذ هو يأتي منها لا هي منه.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

مجالات المسكونيّة الواقعيّة

ربَّ قائلٍ أنّ ما ورد أعلاه جميل ولكنّه لا يفي بالغرض إذ يبقى في مجال التنظير وإطلاق الشعارات، بعيدًا من الواقع المرجوّ والاقتراحات العمليّة. ولتلافي مثل هذا القول عمدت إلى بعض الأمثلة العمليّة المفيدة.

إنّ سبيل التجدّد الكنسيّ يمرّ، بعد الروح القدس، بالقدرات الشبابيّة. فما بال كنائسنا وقد بدت عليها حالة الترهّل المؤسّساتيّ. أين الثقة بالشباب وبإبداعيّتهم وجرأتهم وإقدامهم؟ والسرّ كامن في التنشئة والحضانة. أن نربّي شبابنا على الحسّ الكنسيّ، والروح المسكونيّة الصحيحة، والالتزام الإيجابيّ في المجتمع، واجبٌ علينا لا مفرّ منه. فإعداد الكوادر يُبنى على الأهداف ومعرفتها والتفكّر في إمكان تحقيقها وفي السبل الناجعة لذلك. وهنا يبرز دور المؤسّسات التربويّة التابعة للكنائس والمرتبطة بها. ومثل هذه التنشئة تتطلّب أجواء اجتماعيّة سليمة تُسهم في توفيرها مؤسّساتنا الإنسانيّة قدر إمكانها.

في معظم الأوقات يتراءى لنا أنّ الخطاب الكنسيّ لم يعد يحاكي أهل العصر لأنّه لا يزال يقبع في كهوف العواتق ولم يخرج بعد إلى ما استجدّ وتطوّر. لا يكفي لذلك الاعتناء بالمباني وتجهيزها بأحدث الأجهزة وأجدرها، بل العناية بالإنسان والإصغاء إلى حاله ومؤاساته والتضامن معه تضامنًا في الصميم. وكلّ خطاب من هنا يأتي أو لا يكون نافعًا. ويبدو لنا أنّ مصداقيّة مؤسّساتنا الكنسيّة تراجعت بسبب تضاؤل الالتزام بتمثّلٍ أو قبول ما وعدنا به وتحويله واقعًا سواء في سينودساتنا البطريركيّة أم في السينودس من أجل لبنان وما عقدنا العزم عليه في مجلس كنائس الشرق الأوسط وهيئاتٍ أخرى. والخطاب مرهونٌ بالتنفيذ وصدقيّته بتحوّله حقيقةً ملموسة. فلماذا لا نزال نعيّد الفصح منفردين وجميعنا يعلم أنّ الأمر ثانويّ ولا يتعلّق بالجوهر، بل بالتوافق الكنسيّ على هذا الأمر بعد أن صار حاجةً راعويّة ملحّة؟ ولماذا توقفت الاتفاقات الراعويّة المشتركة بعد اتفاق الشرفة سنة ١٩٩٦؟ ولم تعطّلت رابطة معاهد وكلّيّات اللاهوت في الشرق الأوسط؟ ولما لا تنسيق كافٍ بين جامعاتنا ومعاقل الشبيبة في كنائسنا؟ ولم يسود المزج والخلط بين الهويّات الطائفيّة والكنسيّة والحزبيّة التي باتت تتلاقى في معظم الأحيان مع المصالح الخاصّة على حساب الرهانات الكبرى وكأنّ الواقع صار هو القاعدة التي منها ننطلق والمصير الذي لا مجال لدحضه أو التفلّت منه؟ ولماذا ضاعت القيم الروحيّة التي نتغنّى بها وانجررنا وراء نماذج لا صلة وثيقة

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لنا بها ولا نعرفها إلاّ بوسائل الإعلام المغرية والقديرة؟ ولماذا الاصرار على الحضور المسيحيّ والشهادة إن لم نشعر بأنّنا مقصّرون ومتراخون ومهملون ونتائج مثل هذه الأمور وخيم على وجه العموم؟

ليست هذه الصورة القاتمة هي التي نويت رسمها وعرضها، بل التعبير البليغ عن ما قد ينجم عن الوعي الكنسيّ والمسكونيّ الصادق والملتزِم إن هو استفاق. والروح يرافقنا على الدوام ويأنّ معنا بأنّاتٍ لا توصف علّنا نستقوي به لنكون مسيحيّين فخورين وواثقين بمن نؤمن، ومسيحيّين معًا لا طوائف متفرّقة ومتشرذمة، ومواطنين صالحين وفاعلين في بناء مجتمعٍ سليمٍ وعادل، ومسهمين في صنع سلامٍ لم تلح بعد بشائره، والربّ هو صانعه.

لقد كان لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك دورٌ خطير في السعي المسكونيّ عبر تاريخها. وقد برز هذا الدور بنوعٍ خاصّ في المجمع الفاتيكانيّ الثاني حيث سعى غبطة البطريرك مكسيموس الرابع مع أعضاء السينودس الموقّرين إلى حضور الشرق بتراثه وتقاليده ولاهوته وليتورجيّته حضورًا بيّنًا، فانبروا يدافعون عن النظام البطريركيّ والمجمعيّة، وعن وجوب استعادة الشركة مع الكنائس الأرثوذكسيّة الشقيقة، وعن حقوق الكنائس الشرقيّة وخصائصها وغيرها من الأمور الهامّة. وكان لمبادرة المطران الياس الزغبي المسكونيّة الداعية إلى توحيد البطريركيّة الروميّة الملكيّة الأنطاكيّة الأثر البالغ على تطوّر العلاقات بين الكنيستين الملكيّتين الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة. وقد تبنّى سينودس كنيسة الروم الكاثوليك هذه المبادرة وطوّرها سنة ١٩٩٦ ولكنّ الآوان، على ما يبدو، لم يحن بعد لنضوج ثمار مثل هذه المبادرات. ومنذ تولّيه مسؤوليّة البطريركيّة، لم يألُ صاحب الغبطة البطريرك غريغوريوس الثالث جهدًا في السعي المسكونيّ سواء من خلال رسائله الراعويّة، واتّصالاته العالميّة، والمحاضرات العلميّة التي يلقيها في المحافل المسكونيّة والكنسيّة، والعمل الدؤوب لتحقيق وصيّة الربّ بأن نكون واحدًا. وإنّ مسألة توحيد تاريخ الاحتفال بعيد الفصح أصبحت هاجسًا عنده، كما يتبيّن ذلك من خلال رسالته في فترة الصوم الأخير (٢٠١٠)، وعند جميع أبناء كنيستنا، ولا سيّما رهبان دير مار يوحنّا الشوير الذين بادروا إلى توحيد الاحتفال في الشوير ونجحوا في مبادرتهم ضمن القواعد والأصول القانونيّة والروحيّة.

أنّا على يقينٍ تامّ بأنّ لكنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك ولكنائسنا الشرقيّة الكاثوليكيّة في مجملها، وعلى الرغم من بعض الظروف التي تعاني منها، دورٌ مسكونيّ رائد نسأل الروح القدس أن يلهمها ويشدّدها لتحسن القيام به لمجد الله وإكرامًا لمحبّته اللامتناهية.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com